# (الخواف المدرسي عند الطفل: مقاربة نسقية لحالة إكلينيكية)

بوثلجة مختار- شلبي لينة
جامعة سطيف 2-

**الملخص:**
يهدف هذا المقال إلى إبراز العوامل الأسرية الكامنة خلف الخواف المدرسي من خلال دراسة حالة إكلينيكية؛ حيث يشكل هذا الخواف المدرسي إحدى الاضطرابات التي يتعرض لها الطفل في سن التمدرس، والذي يستدعي تدخل الفاعلين في الميدان، ولقد خلصت نتائج الدراسة إلى وجود حدود مائعة بين الأنساق التحتية للحالة المدروسة، والتحالفات بينها، ولا سيما وظيفة الأب، فضلا عن دور العمل عبر جيلي في ظهور هذا الاضطراب.
**الكلمات الحاكمة:** الخواف المدرسي، المقاربة النسقية، التحالف، الحدود، العمل عبر جيلي، الأنساق التحتية.

**Résumé**
Cet article vise à mettre en évidence les facteurs familiaux de la phobie scolaire à travers l'étude d'un cas clinique. Cette dernière a révélé l'existence entre les sous systèmes de frontières diffuses et des coalitions, et essentiellement ; la fonction paternel et le travail trans-générationnel dans l'apparition de ce trouble.
Mots clés :
phobie scolaire, approche systémique, coalition, frontières, travail trans-générationnel, sous sytèmes .

**مقدمة:**
يشكل دخول الطفل للمدرسة تجربة جديدة له ؛ حيث إن التغير الذي يستشعره الطفل لا يمس نظام اكتساب المعارف فحسب، إنما يتعداه إلى الصعيد العاطفي، ومرد ذلك أسباب عديدة منها: الأنماط الجديدة من التكيف الاجتماعي؛ حيث تضم هذه المؤسسة التربوية مجموعة جديدة من الأصدقاء يجب الاندماج معهم، فضلا عن الابتعاد عن الأسرة لمدة زمنية معينة نهارا؛ قد تجعل هذه العوامل تكيف الطفل أمرا عسيرا، يفصح عنه ما أصطلح عليه " الخواف المدرسي"، هذا الاضطراب الذي اختفت تسميته في التصنيف الدولي للأمراض (ط 10)؛ حيث أدرج ضمن الاضطرابات القلقة الخوافية، واعتبر عنصرا بسيطا في الدليل الإحصائي والتشخيص للأمراض العقلية (ط5)، إذ أدرج ضمن خواف الظروف أو اعتبر كشكل من أشكال قلق الانفصال. (M,Chathline.2006)

والجدير بالذكر أن أول ما يلاحظ على الطفل المصاب بالخواف المدرسي هو تجنب المدرسة، والتحليل المعمق لهذا الاضطراب قد يكشف عن وجود اضطراب قلق غير خواف حقيقي للمدرسة(De- Ajuriaguira, J,1974 , p 62).

وغالبا ما يشكل الخواف المدرسي عند صغار الأطفال عرضا لقلق الانفصال فالطفل لا يريد تجنب المدرسة، وإنما يرفض الانفصال عن صورة تعلقه، ليتصل الخواف المدرسي عند المراهق بالخواف الاجتماعي. ولهذا ينبغي أخذ الخواف المدرسي على محمل الجد، إذ أنه غالبا ما يكون علامة دالة على مرض أعم من الصعب معالجته، فتتخذ اضطرابات القلق عند الأطفال والمراهقين أشكالا شتى، ويعد قلق الانفصال، والقلق المعمم، والخواف الاجتماعي أكثرها انتشارا والتي يفصح عنها في الخواف المدرسي.

إن مسببات الخواف المدرسي متعددة العوامل ، تضم مكونا أسريا مهما(2014.C,Dianne) . لأن الطفل المصاب بالخواف المدرسي منغمس في شبكة من العلاقات الأسرية كان من الضروري استقصاؤها من خلال حالة إكلينيكية لإبراز العلاقة القائمة بين هذا الاضطراب والأسرة.

**تقديم الحالة:**

يبلغ (ن) من العمر 8 سنوات ويكبر أخاه بـ 4 سنوات، لم يعاني من أي اضطراب يذكر على حد قول الأم الماكثة في البيت والأب الموظف، حيث قادته الأم إلى المتابعة النفسية بسبب رفضه الذهاب إلى المدرسة، وما يتبع هذا السلوك من بكاء وصراخ وهياج وأعراض منها آلام البطن والصداع.

أفادت الأم أنه سبق لـ (ن) أن تصرف بالكيفية نفسها منذ تسجيله في القسم التحضيري، لكن الوالدين لم يوليا أهمية لذلك، كانت عائلة(ن) تعيش آنذاك تحت سقف أسرة ممتدة ولقد انفصلت عنها اليوم.

لم يكشف الفحص الأرطوفوني عن أي اضطراب لغوي أو تعليمي، كما هو الشأن بالنسبة للفحص النفسي الحركي أو الطبي.

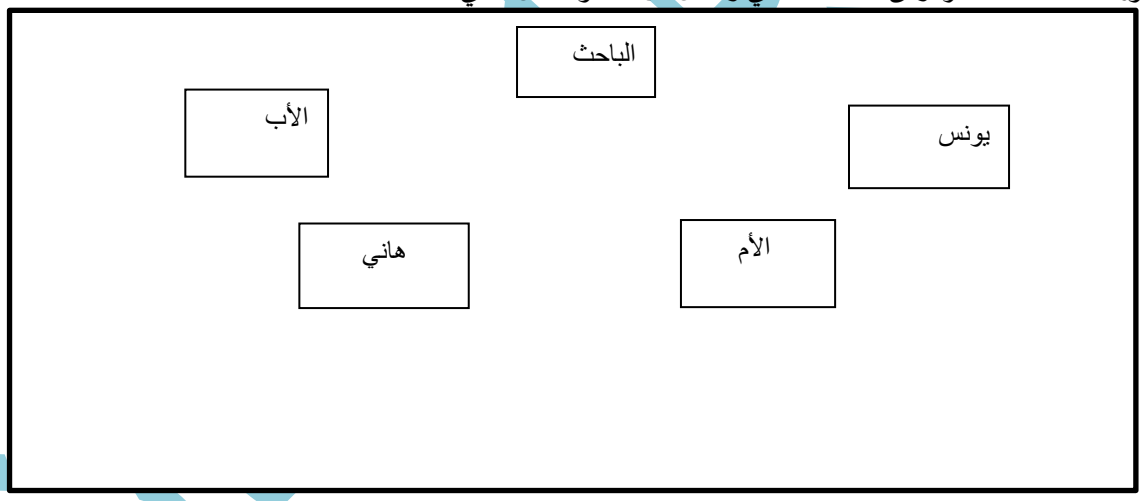
ولاستقصاء العناصر المقترنة بالحالة(ن) أقترح على أسرته إجراء مقابلات أسرية، وحدد موعد ذلك بعد أن أبدت الأسرة موافقتها.

**سير الجلسات:**

- جاءت الأسرة إلى الفحص في اليوم والساعة المحددين، ولقد تم استقبالها في الغرفة المخصصة لذلك.
- دخول الأسرة: دخول أعضاء الأسرة حسب الترتيب الآتي: الأم برفقة الأخ الصغير(ك)- الأب والمريض المعين(ن)

**توزيع أعضاء الأسرة واستغلال الحيز:**

توزعت أعضاء الأسرة وفق المخطط الآتي واحتل كل عضو المكان التالي:




**قراءة أولية لدخول الأسرة واستغلال الحيز:**

- دخول الأم أول الأمر متبوعة بـ(ك) (مؤشر على السلطة التي تتميز بها)، ثم دخول الأب بعدها مؤشر على الصعوبة التي يواجهها في التعرف على وظيفته كمصدر للحماية.
- دخول(ن) بعد الأب في نهاية الأمر (مؤشر على وظيفته كسند لاستقرار وتوازن النسق الأسري)
- استغلال الحيز: وجود (ن) بين الأب والأم (مؤشر عن عدم انسجام النسق الوالدي أي نسق والدي مخترق، جلوس(ن) إلى جانب الأب مؤشر على التقارب بينهما).
- وجود الأم وسط الحلقة (مؤشر لفقدانها السيطرة فيما يتعلق بتنظيم الأسرة، قد يتناقض هذا مع دخولها القاعة كقائد للأسرة ما يدل على ارتباكها في الوظيفة التي يجب القيام بها بين السلطة والتنظيم (سلطة ظاهريا، وهروب ضمنيا).

**تحليل محتوى المقابلات:**

أرهق سلوك (ن) بصورة متفاوتة الشدة كافة أعضاء أسرته(تقاسم المعاناة)، ولقد كانت معاناة الأم شديدة كما هو الشأن بالنسبة لحيرتها أمام مستقبل الأسرة ككل ولاسيما مستقبل (ن)، تجلى ذلك من خلال تساؤلاتها الخاصة بمستقبل الابن والأسرة معا تخللتها فترات من الصمت.

لم تُخفِ الأم وطأة ندمها على العيش في أسرة ممتدة بل حتى على زواجها، والواقع أن الأم كانت أول من يجيب فور طرح الأسئلة على الأسرة رغم التزام الأخصائي بتوزيع النظرات، ومن بين ما ورد على لسان الأم في هذا السياق" اتْعبت امْعاه" "كرهت" "انْدمت كي عشت في العايلة لكبيرة اللي ضيعتني وضيعت اوْلادي".

كان الزوج يؤيد كل ما تتفوه به زوجته بقوله " إيه " واقترن هذا القول بتحريك رأسه تأكيدا.

اتفق الوالدان على ظهور الأعراض الأولى الخاصة برفض ابنهما الذهاب إلى المدرسة، والتي تعود إلى القسم التحضيري كما سلف الذكر، ولقد تناوب الوالدان والجدة في مرافقة(ن) إلى القسم التحضيري، ومع ذلك ظل(ن) رافضا البقاء فيه، ومازاد الأمر سوءا - حسب قول الأم- ردود أفعال الجدة السلبية، إذ أنها كانت ترجع به إلى البيت كلما رفض البقاء في القسم باكيا ومناديا جدته.

عجزت الأم عن التحكم في تمدرس ابنها ولم تكن قادرة على مناقشة موقف الجدة، ويفصح عن ذلك قول الأم: " ناناه هي التي زادت اعْليه، ماكنتش قادرة انْدير والو" " انْخاف منها " .

وهنا انصب اهتمام الأخصائي على فهم طبيعة العلاقة القائمة بين (ن) وجدته، ما أتاح الفهم أن (ن) كان قريبا منها لا على الصعيد التربوي العاطفي فحسب، بل إن الجدة أدت وظيفة الأم التربوية، ما فسح للأم في هذا الشأن فرصة توضيح ذلك قائلة " جداه هي اللي كانت تدللو" "متخليناش نديوه للقسم" " ومنقدروش نهدرو امْعاها "، "هي اللي كانت تتصرف حتى في تربية اوْلادي".

لم يكن من النادر أن يستنجد (ن) بجدته لكي لا يذهب إلى القسم التحضيري ويبقى فيه، أما سكوت الأب المتواجد في سلسلة علائقية تعذر عليه إثبات وجوده من خلال اتخاذه موقفا.

كلما دعا الأخصائي الزوج للمشاركة في المقابلات لمعرفة طبيعة العلاقات السائدة في الأسرة الممتدة، تدخلت الزوجة للإجابة مكانه(يتعلق الأمر هنا بأول نموذج تعاملي)، كذلك هو الأمر حينما كانت الأسئلة توجه لـ(ن) .

لم تتجنب الزوجة إلقاء اللوم على زوجها الذي ظل ملازما لابنه، ولاسيما...في تربيته، وتعود الزوجة مجددا إلى الحديث عن ماضيها مشددة على ما عاشته من مآسي، بين الأسرة الممتدة التي احتلت فيها الجدة مكانة محورية، تنتظم حولها كافة الدينامية العائلية، في مقابل ذلك كانت الأم منهمكة في أشغالها المنزلية، تشغل مكانة ثانوية في تربية ابنها، يتجلى ذلك في قولها " فوتنا مشاكل اكبيرة مع العايلة"، "جداتو وعماتو مخالونيش نربيه كيما انحب "، تكررت هذه العبارات مرات عديدة أثناء المقابلات.

تشكل جميع هذه المعطيات مؤشرا خاصا بطبيعة العلاقات السائدة في الأسرة الممتدة؛ حيث كانت الجدة صاحبة القرار في البيت تساندها العمات أمام أب نزعت منه سلطته الأبوية فاقدا بهذه الكيفية وظيفته الأبوية (تعتبر الجدة في هذا الإطار العائلي حاملة للقضيب رمزيا)، وفي ضوء هذا الإطار التفاعلي العائلي، تتضح الحدود المهمة المميزة لهذه الأسرة؛ حيث اخترقت كتلة الجدة والعمات النسق الوالدي المنفذ، وفي ظل هذا النسق الأسري كانت الأم هي التي تتحمل المعاناة، تطرق Minuchin إلى الحدود المهمة منذ أولى أعماله، وكان يقول بوجود أسر تتميز بهذا النمط من الاشتغال، وتشكل الحدود بين الأنساق التحتية القواعد التي تحدد من يشارك في النسق التحتي وكيف يشارك. (Minuchin,1974,p75)

تكمن وظيفة الحدود في حماية الاختلاف داخل النسق الأسري فلكل نسق تحتي وظائف خاصة به.

والنسق الذي يشتغل بشكل جيد هو ذلك النسق الذي يتيح الانتقال من نسق تحتي لأخر، دون الإخلال بوظيفة النسق التحتي التابع له.

يلاحظ ذلك في أسرة (ن): تخلي الأب عن وظيفته لتحل الجدة والعمات محله، وافتقار الزوجة لسند زوجها.

يشكل الخواف المدرسي الذي كان يعاني منه (ن) نداء من الأم لتعبر عن معاناتها من جهة، كما يشير إلى إحساس (ن) بمعاناة الأم وخشيته من تفكك الأسرة بوصفه ضامن للاتزان الأسري، من ثمة حماية النسق التحتي الوالدي المهدد في استقراره، ما يقود إلى رسم حدود جديدة يؤدي كل عضو من أعضاء الأسرة وظيفته المنوطة به ؛ حيث تعود الجدة إلى نسق الأجداد، والأب يؤدي وظيفته التنفيذية ضمن نسقه الوالدي إلى جانب الأم.

ومع أن أسرة (ن) انفصلت عن الأسرة الممتدة إلا أنه ظل يعاني من الخواف المدرسي، والواقع أنه عند إحساس أفراد أسرة ما بخلل في توازنها ينبثق نداء للتلاحم والوفاء في نظر (Ausloos.1983)، وهذا الأمر جلي في أسرة (ن)؛ حيث كان الأب لا يؤدي وظيفته الأبوية في غياب سند الجدة، وفي هذا النسق العلائقي تسلل (ن) مجددا في ظل حدود مائعة ؛ حيث تحالف مع والده الذي يظهر في حديث الأم على أنه دائم الالتصاق به (كان أثناء المقابلات بجوار الأب) وهذا ليحمي الأب أمام وظيفته الجديدة وذلك عبر الاحتفاظ بخوافه المدرسي.

ويتعلق الأمر هنا بظرف لا يرضي الأم على اعتبار أنه يفسح المجال لبقاء الأب منسحبا، وبدلا من تركيز الأم على وظيفة الأب، راحت تبحث عن حل لاضطراب ابنها، وهذا ما أطلق عليه **أندولفي** Andolfi مصطلح programmera (البرمجة الزائفة)؛ حيث إنه عند مواجهة الأسرة تطورا جديدا يدرك على أنه كارثي، وأمام تحول لا غنى عنه، تتبنى الأسرة حلولا تعرفها معرفة حدسية سلفا، توقف هذه الحلول أي محاولة ترمي إلى معايشة تجارب جديدة تمارسها الأسرة بصرامة في مراحل لاحقة من حياتها( Andolfi,1985, p 10).

-إذن في البداية جاء (ن) ليحافظ على التوازن الأسري لما كانت أمه تعاني من الهرمية المفقودة في الأسرة الممتدة فوظف من قبل النسق الأسري لحماية الأسرة من فقدان توازنها، وفي هذا السياق يندرج ما أشار إليه G.Ausloos قائلا: " إن تعيين أحد أعضاء الأسرة لوظيفة الحامل للعرض عند الأسرة تصبح غير قابلة للعودة " (G,Ausloos.2005) وفي السياق نفسه يرى Andolfi (1985) أن تعيين أحد أعضاء الأسرة للقيام بوظيفة حامل العرض سيرورة غير قابلة للانعكاس، إذ يتحول إلى وظيفة يتعذر على الأسرة الاستمرار دونها (Andolfi,1985,p11)

والخواف المدرسي الذي يعاني منه (ن) جاء أول الأمر كإشارة إنذار تعبيرا عن وظيفة الأب الغائبة؛ حيث احتلت الجدة والعمات في النسق التحتي الوالدي مكانة مركزية.

وبعد انفصال عائلة (ن) عن الأسرة الممتدة، تغيرت الوظائف؛ حيث اضطر الأب للقيام بوظيفته الأبوية، ولأن سيرورة تفرد الأب لم تسمح له بتنويع وظائفه بشكل مرن (تقترن قصة الأب بمعاشه الأسري الماضي) فاستمر الخواف المدرسي، كسند للأب العاجز عن القيام بوظيفته الراهنة، أمام أم حائرة لازالت تبحث عن الوظيفة الأبوية لزوجها .

فالسلوك المرضي كما يرى M.Elkaim يكتسي دلالتين متناقضتين تنطوي إحداهما على الحفاظ على الانسجام، والأخرى على عدم الاستقرار المولد للمعاناة (M,Elkaim1995).

ولقد أشار Olivier. 1980 إلى أن للعرض هدف قوامه محاولة دمج المظاهر المتناقضة للواقع الأسري، والتي تعد بمثابة ميول للحفاظ على البنية الأسرية الحالية، وتحقيق انقطاع مع توازنات قديمة مكتسبة.(Olivier, Amiguet.1980 )

وللتشديد على وظيفة الأب الغائبة عرضت الأم مشكلة مدرسية أحاطتها بها علما معلمته التي عند اقتراحها على التلاميذ تمرينا مفاده جمع حروف متقطعة تشكل كلمة فكانت بعض إجابات (ن) صحيحة وبعضها الآخر غريبة بالنسبة للمعلمة وفيما يلي التمرين وإجاباته:

ا ل و ل د ← الولد

ا ل ش ج ر ة ← الشجرة

ا ل ب ل ب ل ← أبي

ف و ق ← قوي

والواقع أن (ن) كان يشير الى الأب و هو يعوضه بالبلبل مضيفا له في الخطأ الثاني الصفة التي يفتقر إليها الاب (القوة)، وربما عززت مطالب الأم الأب بالقيام بوظيفته، معايشة (ن) الصراع بين الزوجين، وكان مطلب (ن) دعوة لتمكين الأب لممارسته وظيفته الأبوية، ليصبح بهذه الكيفية رمز القوة والحماية، لتقوم الأم بوظيفتها من حب ومساندة الطرفين (الابن والزوج) ما يمثل الحلقة المفقودة في هذا النسق الأسري.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الحالة (ن) أثناء المقابلة المخصصة لمعرفة ما إذا كان (ن) يريد أبا قويا فأجاب واقفا رغم خجله قائلا ( إيه حاب بابا ايكون هو اللي قْوي)، ثم أطرد قائلا إنه كلما يتشاجر أبواه فالأم هي التي تصرخ بينما يبقى الأب صامتا، مضيفا إجابته لأحدى الأسئلة في هذا السياق : "حبيت بابا هو القوي" فابتسمت الأم لرد فعل ابنها.

يعد عدم قيام الأب بوظيفته الأبوية مهما خلال المقابلات الأولى ولم يتم الكشف عنه إلا تدريجيا عند التغلغل في قصة الأب الأسرية باعتباره الابن الأصغر لأسرة تتكون من7 أفراد (ولدان و 05 بنات)، ولكونه أصغرهم استفاد مطولا من تلك المرتبة، مدللا وقريبا جدا من والديه وبخاصة من أمه المسيطرة إلى حد الالتحام على حد قول الأب، لم يتح ذلك لابنها فرصة تحقيق تمايزه وبلوغ استقلاليته، ولقد أشار Bowen في هذا الإطار إلى أن الأطفال يولدون ويبلغون مستويات مختلفة من التمايز لذواتهم عن الأسرة الأصلية، وهذا ما يساعد الأفراد على الانتقال من وظيفة لأخرى دون صعوبات أو الإخلال بوظائف أخرى.(M.Bowen,1984)

فالأب بصفته أصغر إخوته وقربه المميز من والديه ولا سيما أمه ، أسهم في انصهاره في تكوكب وسمته سيطرة الأم ببصمتها ما جعله يعيش إشكاليتان يمكن تلخيصها في سيرورة التفرد (التي سلف ذكرها)، وتبني دور الوالد(parentification) بعد خروج أكبر الإخوة من الدائرة الأسرية (زواجه واستقلاليته)، ما جعل الأخ الأصغر يتحمل مسؤولية الأسرة الممتدة ، ومن المعروف أن تبني عضو من أعضاء الأسرة دور الوالد ينهك موارده الشخصية مما يجعله غير قادر على العطاء في أسرته (S.Minuchin,1985).

**الخلاصة:**

يمكن الوقوف على نقطتين رئيسيتين يتعلقان بحالة (ن):

تعاني أسرة (ن) من عسر اشتغال والذي يضم الحدود المائعة بين الأنساق التحتية، مشكلة الوظيفة عند الأب، التحالفات بين مختلف الأعضاء، (تندرج هذه النتائج في سياق أعمال J. rouart ، C,Dainne المرتبطة بمفهوم الأب الغائب الذي لايؤدي وظيفته .

يتجذر عسر اشتغال الأسرة في تاريخ أب (ن) ضمن أسرته الممتدة والذي يضم عدم تحقيق التفرد، وتبنيه دور الوالد في سن مبكر أدى ذلك إلى استنزاف قوى الأب الذي لم يعد قادرا على تأدية وظيفته الأبوية.

والخواف المدرسي الذي يعاني منه (ن) عرض يتخذ دلالته في سياق دينامية أسرية تبحث عن توازن من خلال استرجاع كل عضو وظيفته.

**قائمة المراجع:**

1-Ausloos,G,(1983),symptôme, système et psychopathologie, conférence présenté au congrès de Lisbonne.

2-Ausloos ,G.(2005), la compétence des familles ; temps,chaos,processus , ramonville Saint-agne : eres

3-Ajuriaguerra J. Manuel de Psychiatrie de l'enfant. Paris, Masson, 1974

4-Amiguet & C, Julier, l'intervention systémique dans le travailsociale,reperes épistémologique, éthique et méthodologique, les éditions , IES, CESP.paris

5-Bowen,M (1984), partielle la différenciation du soi, paris, E,S,F.

6-Catheline .N ,(2006). De la douleur au plaisir de penser : place de la médiation. In : L'absentéisme scolaire, du normal au pathologique. Paris : Hachette Littérature

7-Chelbi.M () ; El-Mesred, glossaire français-arabe, à l'usage des étudiants en psychologie , Dar Elfaiz , constantine.

8-DSM5,(2013) :Diagnostic and Statistical Manuel of Mental Disorders, Fifth Edition, American Psychiatric Association, New school Library.

9-Compan ,D.(2014) ; exploration de la dynamique familiale chez des adolescents atteints de phobie scolaire et leurs parents, thèse de doctorat en médecine, université Toulouse lll, Paul sabateur, France

10-Elkaim.M, (1995), Panorama des thérapies familiales ,edition du seuil, paris

11-Minuchin,S,(1974), families and family therapy.cambridge :hawarduniversité.

Minuchin.S,(2005), famille en thérapie , ramonville saint-agne :eres.. paris.

12-Olivier,A, Amiguet,C.R,julier(2004),les enjeux contradictoires dans le travail social, édition érés, Toulouse, France.

مجلة حقائق